(صلى الله عليه واله وسلم): " أن في الحبشة ملكا لا يُظلم عنده احد " فاستجاب المسلمون لذلك وهاجروا وقد أمّر عليهم جعفر بن ابي طالب (عليه السلام).

وفشلت مساعي قريش في استرداد المسلمين بعد أن بعثوا الوفود محمّلة بالهدايا الى ملك الحبشة، إذ نجح جعفر بن ابي طالب في مهمته المنوطة به، وحقق لأصحابه المؤمنين داراً يؤمّنون فيها على أرواحهم في دولة النجاشي بعد أن اقنعه بالحوار والحجج الدامغة.

ولما ايقنت قريش ألا جدوى من محاولتها، إذ عاد وفدها خائبا، فقرر زعماؤها ان يضيّقوا على من عندهم من المسلمين بالمأكل والمشرب، وأن يحظروا كل انواع التعامل الاجتماعي معهم، لم يتخل ابو طالب (عليه السلام) وبنو هاشم عن نصرة النبي الاعظم (صلى الله عليه واله وسلم) ، فكتبوا صحيفتهم بالمقاطعة الشاملة في البيع والشراء والمخالطة والزواج، ووقعت الصحيفة من قبل اربعين زعيما من زعماء قريش.

الحصار في شعب ابي طالب :

يصوّر لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) ذلك الحصار في شعب ابي طالب قائلاً : " فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا واجْتِيَاحَ أَصْلِنَا، وهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ وفَعَلُوا بِنَا الأَفَاعِيلَ، ومَنَعُونَا الْعَذْبَ وأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ، واضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ، وأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ، فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِه، والرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِه، مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ الأَجْرَ، وكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الأَصْلِ، ومَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيه بِحِلْفٍ يَمْنَعُه، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَه فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ".

يكشف لنا الامام امير المؤمنين (عليه السلام) عن المحنة التي واجهت رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) وبني هاشم، إذ كان (صلى الله عليه واله وسلم) معرّضا للقتل بعد اجماع القرشيين على ذلك، فنجد امير المؤمنين (عليه السلام) يشير الى ذلك قائلا: " فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا "، ويذكر الشراح حادثة تختص بهذه الاشارة منه (عليه السلام) ، إذ روي " ان الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، وتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى لو قد رأينا محمدا قمنا اليه قيام رجل واحد، فلا نفارقه حتى نقتله. قال: فأقبلت فاطمة ∃ حتى دخلت عليه (صلى الله عليه واله وسلم) فأخبرته بقولهم، وقالت له: لو قد رأوك لقتلوك ، وليس منهم رجل الا وقد عرف نصيبه من دمك، فقال: يا بنيتي! أريني وضوءا ، فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد ، فلما رأوه غضوا ابصارهم ثم قالوا: هو ذا ، ثم لم يقم اليه منهم احد، فأقبل (صلى

الله عليه واله وسلم) حتى قام على رؤوسهم، فاخذ قبضة من تراب ، فحصبهم بها ، وقالت: شاهت الوجوه ! فما أصاب رجلا منهم شيء منه إلا قتل يوم بدر كافرا ".

ان هذه الحادثة ما هي الا نموذج ومثال لما تعرّض له النبي(صلى الله عليه واله وسلم) لمحاولة القتل، والمعلوم أنه قد تعرّض لذلك عدة مرات، وإن اشارة الامام امير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: " فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا " هي إشارة اجمالية ربما عنى بها كل تلك المحاولات التي رامت قتله (صلى الله عليه واله وسلم) ، ومنها ما جرى في شعب ابي طالب، فقد كان (صلى الله عليه واله وسلم) عرضة للقتل في كل ليلة، حتى روي " فلما اجمعت قريش على قتل رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) وكتبوا الصحيفة القاطعة ، جمع ابو طالب بني هاشم ، وحلف لهم بالبيت والركن والمقام والمشاعر في الكعبة، لئن شاكت محمدا شوكة لاثنين عليكم، او لاتين عليكم، وأدخله في "الشعب" وكان يحرسه بالليل والنهار قائما على رأسه بالسيف ".

ويروى أن ابا طالب (عليه السلام) كان يعمد الى تغيير محل مبيت النبي (صلى الله عليه واله وسلم) الى عدة أماكن في الليلة الواحدة، ويأمر ابنه امير المؤمنين (عليه السلام) بالمبيت في فراشه (صلى الله عليه واله وسلم) يفديه بنفسه حفاظا على سلامته (صلى الله عليه واله وسلم).

واما عن اشارة امير المؤمنين (عليه السلام) إلى حادثة حصارهم في شعب ابي طالب فظاهر في قوله :" وهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ وفَعَلُوا بِنَا الأَفَاعِيلَ، ومَنَعُونَا الْعَذْبَ وأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ، واضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ، وأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ" فقد هموا بايقاع الشرور بهم ، ومنعوهم طيب العيش " فضاق الامر ببني هاشم، وعدموا القوت، الا ما كان يحمل اليهم سرّاً وخفية. وهو شيء قليل لا يمسك ارماقهم، واخافتهم قريش، فلم يكن يظهر منهم احد، ولا يدخل اليهم احد، وذلك اشد ما لقي رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) واهل بيته بمكة".

وعن قوله (عليه السلام) " واضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ " فقد يحمل على معنين:

الاول: كان مثلاً ضربه (عليه السلام) لخشونة مقامهم، وشظف منزلهم ، أي كانت حالهم فيه كحال من اضطر الى ركوب جبل وعر.

الثاني: يجوز أن يكون حقيقة لا مثلا، لان الشعب الذي حصروهم فيه مضيق بين جبلين.

هنا سؤال جدير بالطرح : هل المشركون هم من اختار الشعب مكانا لحصار بني هاشم؟

في الواقع ان اختيار الشعب تم بارادة الداخلين فيه ، ولم يكونوا مرغمين على ذلك. ونحن أمام رأيين هما في من اختار المكان من بني هاشم:

الأول: النبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم): إن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) هو من اختار مكان الشعب، بعد عزم المشركين على قتله (صلى الله عليه واله وسلم)، فأشار على عمه ابي طالب (عليه السلام) في دخول الشعب فوافق على ذلك. وما يؤيد ذلك قول امير المؤمنين (عليه السلام) ، وهو يحاجج احد اليهود في دخول نبي الله يوسف (عليه السلام) السجن قائلا:" لئن كان يوسف (عليه السلام) حبس في السجن فقد حبس نبي الله (صلى الله عليه واله وسلم) نفسه في الشعب ثلاث سنين..." .

الثاني: أبو طالب: جاء في رواية " ... فلما بلغ ذلك ابا طالب جمع هاشماً ودخل الشعب ... فخلف لهم بالكعبة ... والحرم والركن والمقام لئن شاكت محمد (صلى الله عليه واله وسلم) شوكة لاتين عليكم يا بني هاشم وحصن الشعب ... ". ويظهر نسبة الرأي لأبي طالب لأنه كان كبير بني هاشم والقائم بأمورهم، وهو كبير المحاصرين.

وفي هذه المرحلة العصيبة برز دور ابي طالب (عليه السلام) في اروع المواقف الايمانية الصلبة التي كانت ذات اثر فعال في اجتياز المحنة وتثبيت أركان الدعوة الاسلامية.

ولعل اشارة الامام امير المؤمنين (عليه السلام) السابقة: " ، فَعَزَمَ اللَّه لَنَا عَلَى الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِه، والرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِه " ، ينطبق على موقف ابيه وموقفه هو (عليه السلام) في تلك المحنة – اذ فدى النبي (صلى الله عليه واله وسلم) بنفسه في مبيته في تلك الليالي في محل مبيت النبي (صلى الله عليه واله وسلم) معرض نفسه للقتل في اية لحظة، كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، وفي هذا الموقف الفدائي منه وما عداه من مواقف على طول الخط الرسالي الى جانب النبي (صلى الله عليه واله وسلم) تتجسد معاني من مقولته الشهيرة : " أَمَا واللَّه إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا، حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا مَا عَجَزْتُ ولَا جَبُنْتُ ".

وفي قول آخر يقول (عليه السلام): " ولَقَدْ وَاسَيْتُه بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ ، الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الأَبْطَالُ ، وتَتَأَخَّرُ فِيهَا الأَقْدَامُ نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّه بِهَا". وما مواقفه الا صورة مجسدة لشجاعته النادرة في دفاعه عن حياض الاسلام وشخص النبي الاعظم (صلى الله عليه واله وسلم).

وقد اشار الامام امير المؤمنين (عليه السلام) إلى أن موقف بني هاشم كان متميزا في دفاعهم عن النبي(صلى الله عليه واله وسلم) مؤمنهم وكافرهم، اذ يقول مبينا دافع كل منهم في مواقفه الدفاعية عن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) : " مؤمننا يبغي بذلك الاجر، وكافرنا يحامي عن الاصل ". وفي هذا دلالة على ان بني هاشم الذين حصروا في شعب ابي طالب كانوا صنفين: مؤمنين وكافرين ، وقد اختلف الشراح في بيان شخوص كل صنف. فاما الصنف الاول وهم الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه واله وسلم) حق الايمان، فانما هم يطلبون الاجر من الله في الصبر على تلك المحنة ومواساة النبي الاعظم (صلى الله عليه واله وسلم) والدفاع عنه . واما عن دافع الصنف الثاني وهم الذين بقوا كافرين على دين قومهم، ولكنهم يذبون عن رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ويحامون عنه ويدافعون عنه لا من حيث العقيدة، بل من حيث الحمية للنسب الواحد والاصل المشترك.

ومن الطريف ما ورد في احدى الروايات حول موقف لأعدى اعداء النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وهو ابو لهب الذي لم ينضم الى بني هاشم في هذا الظرف بل ظاهر عليهم، ولكن في موقف نجده يحامي عن اصله، اذ روى ابن اسحاق قائلا: " فلم يُؤثَر عن ابي لهب خير قط، الا ما يروى أن ابا سلمة بن عبد الاسد المخزومي، لما وثب عليه قومه ليعذبوه، ويفتنوه عن الاسلام هرب منهم، فاستجار بابي طالب، وام ابي طالب مخزومية وهي ام عبد الله والد رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) فأجاره، فمشى اليه رجال من بني مخزوم، وقالوا له: يا ابا طالب! هبك منعت منا ابن أخيك، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا، قال: أنه استجار بي وهو ابن اختي وان انا لم امنع ابن اختي لم امنع ابن اخي، فارتفعت اصواتهم واصواته ، فقام ابو لهب ، ولم ينصر ابا طالب قبلها ولا بعدها ، فقال: يا معشر قريش! والله لقد اكثرتم على هذا الشيخ ، لا تزالون تثوثبون عليه في جواره من بين قومه! اما والله لتنتهُن عنه او لنقومن معه، فيما قام فيه حتى يبلغ ما اراد. فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا ابا عتبة ، فقاموا فانصرفوا ، وكان وليا لهم ومعينا على رسول الله وابي طالب، فاتقوه وخافوا ان تحمله الحمية على الاسلام، فطمع فيه ابو طالب حيث سمعه قال ما قال، وامل ان يقوم معه في نصرة رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) فقال يحرضه على ذلك:

وإن امـــــــرأ ابـو عُتيـبـة عـمُه لفى معزلٍ من ان يُسام المظالما

ولا تقبلنّ الدهر ما عشت خطةً تُسبّ بـــــها اما هبطت المواســـما

أقـــول له وايـــن مـــنه نصيحتي ابـــا عُتبـــة ثَـبـــت ســـوادك قـــائما

وفي معرض التميز لموقف اهل بيت النبي (صلى الله عليه واله وسلم) عمن سواهم في تلك الفترة القاسية يقول امير المؤمنين (عليه السلام): " ومن اسلم من قريش خلو مما نحن فيه بحلف يمنعه، او عشيرة تقوم دونه، فهو من القتل بمكان آمن ". فتفريقه بين الصنفان قائم على أن بعضهم كانوا على حلف وعهد من الكفار، فمن أجل ذلك كانوا آمنين، وبعضهم الآخر لم يكن لهم العهد لكنهم كانوا ذوي عشيرة تقوم دونهم وتمنعهم الاعداء، فالمراد ان البلية انما كانت متوجهة اليه (عليه السلام) والى سائر بني هاشم وبني المطلب لم يكونوا على عهد، ولم يكن لهم من يقوم دونهم، وبذلك يعلم فضيلتهم في حماية رسول الله وذبه عن كيد الاعداء .

ثم إن الله تعالى سلّط على صحيفتهم التي كتبوها الارضة، فلم تدع الا (باسمك الله فاغفر)، فاخبر الله عز وجل بذلك رسوله (صلى الله عليه واله وسلم) ، فاخبر رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) عمه ابا طالب (عليه السلام) ، فخرج ابو طالب في جماعة من رهطه ، حتى وقف على قريش وطالبهم بإخراج الصحيفة، واراهم صنيع الله بها وصدق رسوله (صلى الله عليه واله وسلم) فبهتوا وخابوا واخزاهم الله سبحانه وتعالى.

وفي السنة العاشرة من البعثة خرج النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وبنو هاشم من الحصار، وهم اصلب عودا، واغنى تجربة ، واكثر قدرة على التحرك صوب الهدف الذي آلوا على انفسهم أن لا يتخلوا عنه رغم كل الصعاب، وكان من اثر الحصار، أن اشتهر ذكر الاسلام والمسلمين وانتشر في كل ارجاء الجزيرة العربية، وكانت امام رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) مهام صعبة منها ، الانفتاح بصورة اوسع خارج نطاق مكة ، ومحاولة ايجاد اكثر من مكان آمن تتحرك من خلاله الرسالة الاسلامية .

اذن استتبع اعلان الدعوة العام المواجهة من قبل رموز الجاهلية الذين عبر عنهم (عليه السلام) بـ " الملأ "، وكانت قريش ببطونها هي المخاطب الاول لدعوة النبي(صلى الله عليه واله وسلم)، وكانت استجابتها – وهي في الموقع الاجتماعي والسياسي المرموق عند عرب الجزيرة – تشكل منعطفا كبيرا في تقدم الرسالة، كما كان احجامها وتلكؤها يشكل عقبة كؤود امام حركة الرسالة وتطورها وتمخضت دعوتهم الى الايمان بالدعوة عن مرحلتين من المواجهة:

اولا: المواجهة السلمية او الحرب النفسية: المتمثلة بالتعجب والتشكيك وطلب المعجزة والسخرية واتهامه (صلى الله عليه واله وسلم) بالكذب والسحر كما مر بنا.

ثانيا: التهديد بشتى اشكاله الذي كان تعبيرا عن اخر السهام التي اطلقها الملأ القرشي لضرب النبي (صلى الله عليه واله وسلم) ودعوته للانتقال من المواجهة السلمية الى المواجهة الساخنة، التي بدأت بإيذاء وتعذيب المسلمين، ثم انتهت بقرار التصفية الشاملة والسريعة المتمثلة في قتل القيادة وانهاء وجودها وتحركها بشكل تام. وهذا ما اشار اليه (عليه السلام) بقوله : " فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا واجْتِيَاحَ أَصْلِنَا".

كانت ردود فعل النبي (صلى الله عليه واله وسلم) في كل مرحلة من مراحل المواجهة تتناسب مع اهدافه العليا ومثله وقيم الرسالة التي يريد ارساءها في وجدان ذلك المجتمع، فكان البلاغ المبين والصبر والمقاومة هو الشعار الاول، والهجر الجميل الذي تمثل بالامر بالهجرة حلا للازمة كما كان استمرار المقاومة والدعوة هو الشعار الثاني، وقد خرج النبي (صلى الله عليه واله وسلم) من المقاطعة الشاملة منتصرا ظافرا بالحماية الالهية، واستمر يبحث عن القلوب الواعية حتى امره الله بالهجرة الشاملة ليعد العدة اللازمة لصد العدوان القرشي الذي اخذته العزة بالاثم، وراح يخطط لاطفاء نور الله في الارض ، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

ولكن فجع النبي (صلى الله عليه واله وسلم) ورسالته الغراء بمضة شديدة اثر فقد حاميها وسندها القوي المنيع ابو طالب (عليه السلام) ، وكذلك وفاة السيدة خديجة ∃ ثاني سندي الرسول الاعظم (صلى الله عليه واله وسلم) ولشدة اثر فقدهما على النبي (صلى الله عليه واله وسلم) روي أنه سمى ذاك العام بـ "عام الحزن" ، وقد صرح (صلى الله عليه واله وسلم) قائلا: " ما زالت قريش كاعة عني حتى مات ابو طالب" ، بل جاء الامر الالهي بوجوب الخروج من مكة ، والبحث عن مأوى آمن بعد غياب ابي طالب.

ثالثاً : مرحلة الهجرة وبناء الدولة

تعد الهجرة ظاهرة من الظواهر ذات العلاقة بالرسالات الإلهية ، وبالتحولات الكبيرة في هذه الرسالات ، ليس باعتبارها راحة، أو تحولا إلى مكان أفضل للاستقرار، والعيش الهني المطمئن ، بل هي من ظواهر المعاناة والابتلاء الذي خص الله سبحانه به من اجتباه لمثل هكذا مهمات وادوار .

إن ما يبدو من تاريخ الرسالات الإلهية أن الهجرة كانت ظاهرة مهمة لازمت أنبياء كثر، ولا سيما أولوا العزم منهم ، إذ كانت ذات اثر فعّال في تطور البشرية ، وقد مثلت منعطفا مهماً جدا في تاريخ